

نظرية الاعتراف و اقتضاء الحرية عند أكسل هونيت

سارة دبوسي

جامعة قفصة-تونس

sara.daboussi@gmail.com

تاريخ النشر: 2023/07/11

تاريخ القبول: 2023/05/17

تاريخ الاستلام: 2023/03/27

ملخص:

سنسعى ضمن هذا البحث إلى تقديم قراءة تحليلية نقدية للتصور الفلسفي الذي رسمه الفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني أكسل هونيت كممثل للجيل الثالث لمدرسة فرنكفورت النقدية، وكيف عمد هذا الأخير إلى كشف عن أهم المأزم الاجتماعية التي ضربت المجتمعات الغربية منذ فترة الحداثة والحلول العلاجية التي قدمها لأجل هاته المجتمعات، من خلال بسطه لنظريته في الصراع من أجل الاعتراف، وكيف سعى عبرها إلى ربط خيوط الوصل بين نظريته الأولى وما تقتضيه الوقائع المرحلية من طرح لنظرية العدالة من جديد وربطه للاعتراف والعدالة الاجتماعية بوجود الحرية الذاتية في طرح فلسفي يتماشى والقضايا الاجتماعية المعاصرة..

كلمات مفتاحية: الاعتراف- الاحتقار- الظلم- الحرية- العدالة- المجتمعات الغربية- الباثولوجيات الاجتماعية- الصراع- الإهانة.

1. مقدمة:

شكلت نظرية الصراع من أجل الاعتراف الشغل الشاغل للفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني أكسل هونيت (Axel Honneth) (إيسن 1949) حتى بات يعرف بها وهي تعرف به، فهي الركيزة والدعامة الأساسية التي شيد عليها مشروعه الفلسفي الطموح، فقد كانت بمثابة حجر الزاوية الذي أسس على منواله مشروعه الفكري النابع من صميم القضايا الاجتماعية والسياسية الحارقة بالمجتمعات الغربية الحديثة والمعاصرة وما تبعها من قيم أخلاقية ونفسية.

رغم أن هونيت قد سجل حضوره الفكري داخل مدرسة فرنكفورت النقدية حينما نشر كتابه المعنون بنقد السلطة منذ سنة 1989، إلا أنه لم يحظى بشهرة واسعة ولم يطل بصورة جلية على تاريخ السرد الفلسفي إلا من خلال ما بلوره في فاتحة مشروعه الفكري الطموح وتدقيقا في كتابه العمد الصراع من أجل الاعتراف 1992 الذي احتل منزلة أساسية في سياق الفكر الفلسفي المعاصر والذي يعد بنظر العديد من الباحثين في الشأن الفلسفي من أهم الكتب التي صدرت لتأسيس نظرية الاعتراف. ينتمي هونيت من حيث المجايلة الفكرية لمدرسة فرنكفورت النقدية إلى جيلها الثالث ويمثل الوريث الشرعي لها، انخرطت مجموع أبحاثه ضمن تقليد فلسفي اهتم بالاختلالات المرضية المعرقة لنجاح الحياة الاجتماعية بالمجتمعات الغربية. هذا وتميز فلسفته عن الفلسفات الأخرى بطابع تفكيرها في البحث عن الكيفية التي من خلالها يتم تجاوز مجموع التشوهات المرضية التي أعاققت إرساء حياة اجتماعية ناجحة أو جيدة للأفراد.

تأتي إذن أهمية هذا التوجه الفكري الذي سلكه هونيت من خلال تحيينه لفلسفة الشاب هيغل (Georg Wilhelm Friedrich Hegel 1770-1831) وتجاوزه لثنائية الغالب والمغلوب التي تجلت في الكتابات الهيغلية المبكرة من خلال ثنائية السيد والعبد، وما ميز هاته القراءة هو أن صاحبها قد أرجعها إلى الجانب الأخلاقي لا إلى الصراع الطبقي، ومن جهة أخرى من خلال تطويره لمفهوم الفعل التواصل الذي صاغه هابرماس من قبله وذلك من خلال صياغته لبراديغم جديد تمثل في " الصراع من أجل الاعتراف"، الذي أحيى من خلاله التقليد الفلسفي المتمحور موضوعه حول الباثولوجيات الاجتماعية المتصلة بالعدل الاجتماعي والذي لا يستطيع المجتمع تجسيده إلا بالتوجه إلى الآخر والتداوت معه. لقد صاغ هونيت هذا النموذج انطلاقا من الوصف الظاهري والتحليل النقدي لجل التشوهات المرضية التي ضربت المجتمعات الحديثة. فلا مناص من القول بأن مفهوم الاعتراف في تصور هونيت يعد مقاربة نقدية لأجل إرساء حوار نقدي حول إرث النظرية النقدية للمدرسة وفي الآن ذاته يشكل بديلا فلسفيا لها حيث أنجز هذا البديل من خلال مناقشته لأعمال أبرز روادها وهم كل من ماكس هوركهايمر (Max Horkheimer 1895-1973) و أدرنو تيودور (Adorno Théodore) ويورغن هابرماس (Habermas Jurgen 1929) الذي يعد أستاذه المباشر حيث أعاد النظر في الأسس التي تقوم عليها النظرية النقدية وقد انتقد طابعها الاختزالي الاقتصادي الذي تجلى من خلال الافلاس الاجتماعي وعدم القدرة على الأخذ بعين الاعتبار للجوانب الاجتماعية ولخصوصيتها النفسية. ليراهن من جديد على أهمية المسألة الأخلاقية والسياسية التي عمقتها الاحراجات الإنسانية الراهنة التي يغذيها جشع الإنسانية المعاصرة وما اكتنفها من ظلم وقهر والذي لزال نسقه في تزايد عبر العالم.

وعلى الرغم من المنزلة العملية التي اكتسبتها نظرية الاعتراف والأهمية التي أولاها لها صاحبها باعتبارها شكلت ولا تزال أبلغ تعبير عن النظرية الاجتماعية وأنضج نموذج فكري لها وهو النضج الذي مكنتها من

نظرية الاعتراف و اقتضاء الحرية عند أكسل هونيت

استيعاب جملة من القضايا والتحديات والتحويلات التي طرأت على المجتمعات المعاصرة بشكل لم تعهده من قبل. إلا أن هونيت لم يتوقف عند حدود هاته النظرية واتجها نحو التفاعل مع الاهتمامات المتزايدة عبر العالم بنظرية العدالة في بعدها الكوني ومراهنتها على المطالبة بالحرية الفعلية ضمن أفق الفضاء العمومي للأفراد والجماعات وهذا ما نجد صداه ضمن كتابه الهام الحق في الحرية 2011. فكيف جسم إذن هونيت نظريته في الاعتراف؟ وما هي الأسس والدوافع التي بناء عليها شيد هذه النظرية؟ وما الحاجة إلى الحرية والحال أن نظرية الاعتراف قد قدمت جملة من الحلول التي من شأنها أن تستوعب الإحراجات المرحلية للإنسانية المعاصرة؟

1- في الحاجة إلى فلسفة الاعتراف

قبل إمعان النظر في المشروع الفكري الذي أسسه الفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني أكسل هونيت، والذي سعى من خلاله إلى تطوير النظرية النقدية التي برزت في أفق التفكير البشري منذ ثلاثينات القرن الماضي، توجب علينا أن نولي أنظارنا جهة الأسس والروافد الفكرية المختلفة (الفلسفية- السيكولوجية- السوسولوجية) التي استند إليها صاحب نظرية الاعتراف في توجيه مقارنته الفكرية ومحاولته البحث عن حلول عملية لما يعج به العالم الاجتماعي من باثولوجيات، والإضافة النوعية التي تجاوز بها أسلافه ضمن المسار النقدي الذي رسمه الروائد الأوئل لمدرسة فرنكفورت النقدية في فضاء الفلسفة الاجتماعية. إن التمعن في عمق الأزمت الاجتماعية التي سادت بالدول الغربية منذ فترة الحداثة الأوروبية إلى اليوم، هو ما يمثل همزة الوصل بين أبناء مدرسة فرانكفورت من الجيل الأول(نموذج الإنتاج)مرورا بالجيل الثاني(نموذج التواصل) وصولا إلى الجيل الثالث الذي حاول أن يقدم النظرية النقدية في حلة جديدة تحمل في طياتها ثقافة الاعتراف بالآخر ضمن أفق الفضاء العمومي المشترك. ولئن كانت الأزمة الاجتماعية هي الخيط الفكري الناظم ما بين الأجيال الثلاثة المتعاقبة على مدرسة فرنكفورت، إلا أن ذلك لا يعفيانا البتة من الإقرار بالبون الفكري ما بين الجيل الأول والجيلان اللاحقان له. حيث أن أبناء الجيل الأول من المؤسسين وهم كل من هوركهايمر وأدرنو وماركوز (Marcuse Herbert) (1898-1979)، قد سعوا إلى تقديم نقدا شاملا للحضارة الغربية التي وقعت في الانحطاط والتقهر من خلال الكشف عن أوجه البربرية الجديدة التي ضربت المجتمعات الغربية في فترة الحداثة ومرحلة التنوير، وكيف راهن هؤلاء على تبيان العلاقة العدائية التي تربط الإنسان بالطبيعة وكيف سقط التنوير في الميثولوجيا ولعل أكبر هذه الأساطير هو التقدم التقني والسيطرة على الطبيعة والإنسان معا، وهو ما جعل من أدرنو يعتبر أن روح العالم والحداثة لم تعد تتجسم من خلال حصان نابليون كما ذهب إلى ذلك هيغل وإنما على جناحي بندقية آلية.

رغم أن النظرية النقدية قد سعت إلى تحقيق غايات أساسية أهمها التحرر أو الانعتاق لذلك كانت دائما تناشد التغيير وتؤمن بالممارسة وتتحدث باسم المستقبل من خلال ما قدمته من تحليلات نقدية للمجتمع، إلا أنها ورغم الحلول التي قدمها أبنائها بشأن أسباب أزمة المجتمع الغربي فقد بلغوا الأفق المسدود باعتبارهم تمركزوا حول عقل محاط بالتاريخ دون أن يقوموا بفعل التأسيس.

ولئن ظل الجيل الأول من رواد النظرية النقدية حبيس نظرة ملؤها القتامة والسواد، فإن الطرح النقدي للأجيال اللاحقة حاول قدر المستطاع تضميد الجراح الاجتماعية وتجاوز العقبات التي تحول دون تحقيق التوازن الجواني للبشرية، حيث راهن الجيل الثاني والمتمثل في رائده هابرماس استيعاب جملة التحديات والتحويلات الضاربة لمعترك الحياة الاجتماعية من خلال محاولته تجاوز اختناق الفكر النقدي لدى سابقه من خلال تغييره لبراديجم الوعي الذاتي ببراديجم الوعي الحواري الذي يستمد معانيه من منجزات فلسفة اللغة.

ولأجل رسم ملامح المخرجات الفلسفية التي من خلالها يتم تجاوز واقع الإنسداد الذي وقع فيه الجيل الأول، فقد راهن الجيل الثالث أيضا والمتكون من كوكبة من الفلاسفة وعلى رأسهم أكسل هونيت على تطوير مفهوم الفعل التواصلي الذي صاغه هابرماس من قبله وذلك من خلال صياغته لبراديجم جديد تمثل في " الصراع من أجل الاعتراف"، الذي حاول من خلاله إحياء التقليد الفلسفي المتمحور موضوعه حول الباثولوجيات الاجتماعية المتصلة بالعدل الاجتماعي الذي لا يستطيع المجتمع تجسيده إلا بالتوجه إلى الآخر والتداوت معه، وهو ما جعله يتفق مع هابرماس في القول بأن الحداثة مشروع لم ينجز بعد وبالتالي وقع تغيير براديجم البحث من الذاتية إلى البيئذاتية.

وبحكم التلمذة الفلسفية الجامعة بين هابرماس وهونيت تتجلى لنا القرابة المتينة التي تجمع بين تصوريهما في رسم برنامج فكري عملي يتيح للمجتمعات الغربية المعاصرة الخروج من عمق الأزمات المتمركزة به إلى أفق أرحب يتيح بناء مجموعة من العلاقات الاجتماعية والسياسية التي تسمح بتأسيس مشروع العيش المشترك.

ولأجل تمتين صلابة طرحه الفلسفي وتأمين وجاهته المعرفية، فقد سعى هونيت إلى العمل على تحيين فلسفة الشاب هيغل متجاوزا بذلك القول بجدلية السيد والعبد نحو تقديم قراءة أخلاقية باعتبار أن الصراع من أجل الاعتراف يعود إلى الآمال والتطلعات ذات الطبيعة الأخلاقية، هذا فضلا على استثماره للمكتسبات النظرية المنبثقة من مختلف المباحث السوسولوجية والسيكولوجية لكل من هيربرت ميد (George Herbert Mead 1863-1931) ودونالد وينكوت (Donald Winnicott 1896- 1971).

لقد فتح هونيت مشروعه الفلسفي المتمحور حول نظرية الاعتراف منذ إصداره لكتابه الأساسي الصراع من أجل الاعتراف (1992)، والذي انطلقا منه حاول مقارعة التحويلات الاجتماعية بالمجتمعات الغربية وتشخيص مجموع الباثولوجيات التي تنخر الروابط الاجتماعية بها. مقترحا في ذلك نظرية الاعتراف كحل

نظرية الاعتراف و اقتضاء الحرية عند أكسل هونيت

علاجي لتجاوز تلك الوقائع وتحقيق عدالة اجتماعية على النحو المطلوب. لكن فيما تمثلت هاته الأمراض؟ وبما امتازت نظرية الاعتراف الهونيتي؟

أ: قراءة في أهم الباثولوجيات الاجتماعية

عديدة هي التشوهات أو الأمراض الاجتماعية التي تناولها هونيت بالدرس في فلسفته الاجتماعية، ولعل باثولوجيا الاحتقار كانت في مقدمتها وذلك لما لها من تأثير سلبي على الأفراد من ضروب متعددة، وباعتبارها كذلك فقد كتب في شأنها هونيت ضمن كتابه *مجتمع الاحتقار*: نحو نظرية نقدية جديدة ما يلي: "عندما ينفى عن الشخص الاعتراف الذي يستحقه فإنه يتفاعل وفق القاعدة العامة للأخلاقية التي ترافق تجربة الاحتقار التي يترتب عنها الغضب والسخط والعار"¹. وهي جملة من المشاعر السلبية التي تمس الفرد في كيانه الخاص.

بيد أن الأمر المثير للتفكير هنا حسب هونيت هو أن الفرد المعاصر يخضع لجملة من "التجارب الأخلاقية المعيشة" داخل المجتمعات الغربية والمتمثلة أساسا في جملة من التجاوزات للأخلاقية التي تتمظهر على شاكلة عائق بنيوي على تحقيق مجتمع ناجح. ولعل باثولوجيا الاحتقار بضرابه الثلاثة وما ينجر عنه من مشاعر سلبية تكون في مقدمة هاته التجارب.

هذا ويتمثل الضرب الأول من الاحتقار في العنف الجسدي الذي يصيب الأفراد وما يلحق بهم من ضرر مادي ومعنوي خاصة في وضعيات التعذيب والاعتصاب التي يحرم فيها الضحية من إمكانية التصرف الحر في جسده الخاص باعتبار أن "الحرمة الجسدية والأخلاقية للأشخاص تهددها ظاهرة العنف الذي تفاقم في الدولة المعاصرة، وخاصة مع الجريمة المنظمة، كما تطرح ظاهرة شبكات الدعارة والاعتصاب بدورها مشاكل عميقة نجد صداها في الحركات النسوية التي تناضل من أجل تحقيق كرامة المرأة ومساواتها بالرجل"².

هذا وتؤثر مثل هاته التجربة الأخلاقية المعاشة على ثقة الفرد في نفسه التي اكتسبها ضمن تجربة الحب خلال التنشئة الاجتماعية الأولى مع العائلة، وهو ما من شأنه أن يفضي إلى الإحفاق الاجتماعي وما يترتب عنه من شعور سلبي يصل بالفرد حد فقدان الثقة في النفس والعالم أيضا، باعتبار أن الضرر الذي لحق به لا يتمثل في الألم الجسدي فحسب وإنما أيضا في الشعور السلبي الذي ينتابه حينما يجد نفسه في خضوع تام للغير وغير قادرين على الدفاع على نفسه أمام المعتدي عليه.

¹ - Honneth Axel, *La société du mépris : vers une nouvelle théorie critique*, Trad. Olivier Voirol, Pierre Rusch et Alexandre Dupeyrix, Paris, La Découverte, 2006, p. 193.

² - محسن الخوني، "الفهم والتفاهم والحوار والاعتراف في فلسفة التواصل بين هابرماس وهونيت"، مجلة التفاهم، العدد 36، 2012، ص 94.

يبدو أن معاينة هونيت لأشكال الاحتقار لم تتوقف عند حدود العنف الجسدي وما يرافق ضحاياه من شعور سلبي، وإنما قد عاين أيضا الضرب الثاني للاحتقار من جهة القانون أي من خلال تقصيه لواقعة سلب بعض الحقوق المشروعة والمكفولة قانونيا ومؤسساتيا للأفراد مما يجعلهم ضحايا الحرمان القسري من دائرة الحقوق داخل المجتمع الذي ينتمون إليه والذي يتوجب عليه منحهم حق المشاركة البناءة في النظام المؤسساتي له.

وما يميز هذه التجربة هو أن الحرمان الذي يتعرض له هؤلاء هو ما يجعلهم يخرطون في جملة من الصراعات الاجتماعية المنظمة ضد المجتمع الذي حرّمهم من حقوقهم المكفولة مؤسساتيا، لأنهم وبكل بساطة فقدوا الثقة في ذواتهم وفي المجتمع ككل، وهو ما يفضي بهم إلى الانكسار الأخلاقي " ولهذا السبب فإن تجربة الحرمان من الحقوق لا تقاس فحسب على المستوى الكوني، بل من حيث المستوى المادي للحقوق المكفولة مؤسساتيا"¹.

وتبعا للتشوهات التي تناولها هونيت ضمن باثولوجيا الاحتقار، فإن الضرب الثالث لهذا التشوه يلامس المستوى القيمي للأفراد باعتباره يتمثل في الحكم السلبي عليهم ضمن مجال العمل، والذي يجعلهم يشعرون بفقدانهم للتقدير والاحترام الذي اكتسبوه ضمن تجربة التضامن .

فما تجدر الإشارة إليه هو أن صاحب نظرية الصراع من أجل الاعتراف لم يحصر التجارب الأخلاقية المعاشة للأفراد والجماعات بالمجتمعات الغربية عند حدود تجربة الاحتقار بضرورها الثلاثة، وإنما تعداها إلى نقد وتحليل جملة من الباثولوجيات الضاربة في عمق الحضارة والتاريخ، ولنا في ظاهرة التشيؤ وما تحمله في ثناياها من نسيان للاعتراف الحاصل بين الذوات خير دليل على التجاوزات الأخلاقية الضاربة بهاته المجتمعات.

عمد هونيت ضمن قراءته الخاصة لظاهرة التشيؤ إلى تتجاوز التصور اللوكاتشي للمفهوم الذي حصره في السلعة وتناسى الإهتمام بالواقع الاجتماعي شأن إشكالي العنصرية والمتاجرة بالبشر، لذلك أقر هونيت بأن التشيؤ "يعني هنا نسيان للاعتراف(Oubli de la reconnaissance) . فإثناء حصول عملية المعرفة نكف عن الانتباه، وذلك لأن هذه المعرفة نفسها ناتجة عن الاعتراف الأولي"².

هذا ولم يتوقف هونيت عند حدود هاته التشوهات التي تناولها في فلسفته الاجتماعية، وإنما تعداها إلى ماهو أعوص بكثير حينما تناول ظاهرة التجاهل العمد أو ما يعرف باللامرئي من خلال عودته إلى عمق التاريخ الثقافي وتبنيانه لمعاملة النبلاء لخدمهم وكيف كانوا يتعرون أمامهم لأنهم يعتبرونهم غير موجودين.

¹ - Honneth Axel, la lutte por la reconnaissance, trad. Pierre Rusch, Paris Cerf, 2000,p. 228.

² - هونيت أكسل، التشيؤ: دراسة في نظرية الاعتراف، ترجمة كمال بومنيير، الجزائر، 2010، ص64.

نظرية الاعتراف و اقتضاء الحرية عند أكسل هونيت

هذا وتعد هذه الظاهرة من أهم الانحرافات الاجتماعية التي ضربت المجتمعات المعاصرة وذلك لما خلفته من ميز عنصري بين الأفراد. خاصة وأن هاته الظاهرة لا تتصل بالعين الفيزيائية وانما بالبصيرة التي ترى ما تريد من الناس وتصدر أحكامها العدوانية على الآخر كما تشاء، إنه " اللاوجود الفيزيائي وبالأحرى اللاوجود بالمعنى الاجتماعي للكلمة"¹.

ما تجدر الإشارة إليه أن هونيت قد أتى في فلسفته الاجتماعية على هذا التشوه الأخلاقي، لأجل البرهنة على مجموع الصور اللاأخلاقية وما تحمله من إهانة للأفراد الذين هم عرضة لمثل هاته المعاملات السيئة وما يتكبدونه من مشاعر سلبية متأتية من عدم رؤية الآخرين لهم قصدا. ولعل مثال الرجل الشفاف الذي أخذه عن الروائي الأمريكي رالف إلسن وما يتكبده من نظرة عنصرية هو ما جعله شفاف وغير مرئي للبعض الآخر الذي لا يريد رؤيته ضمن واقع اجتماعي عنصري أراد من خلال توظيفه الإشارة إلى ضرب من الغياب الاجتماعي رغم الحضور الفيزيائي لأجل التعبير على معاناة المنبوذين والمرفوضين. اجتماعيا.

وقد أرجع هونيت مجموع الإخلالات المرضية الضاربة في عمق الحضارة الغربية إلى مخلفات النظام الرأسمالي الذي راهن على تحقيق الكسب المادي وأهمال للعلاقات الإنسانية مما أدى إلى تفشي هاته الظواهر الاجتماعية العويصة.

يبدو أن ما يتعرض له الهامشيون من منبوذون ومرفوضون من الواقع الاجتماعي المعيش من سوء معاملة جراء سلوكات الاحتقار والتجاهل من قبل الآخر الذي يرفض وجودهم بالفضاء العمومي المشترك، هو ما يدفعهم إلى الانخراط في جملة من الصراعات الاجتماعية المنظمة ضد القهر والنحطاط الذي مورس عليهم قسرا. ولكن إلى أي مدى يستطيع المجتمع الغربي رغم ما ينخره من تشوهات اجتماعية أن يبرهن على وجود قيم العدالة والديمقراطية به؟ وفيما تمثل الحل الذي قدمه هونيت لأجل إنقاذ المجتمعات الغربية من التفشي الواسع لهاته الباثولوجيات بدول الرفاه؟

ب: نظرية الاعتراف كعلاج بديل للواقع الاجتماعي المريض

لأجل إيجاد مخرج فلسفي متين تتجاوز من خلاله الإنسانية مجموع التشوهات التي ضربتها في العمق، فقد ذهب هونيت كما ذهب من قبله هيغل وتاييلور وريكور إلى القول بأهمية الاعتراف في حل هاته التوترات الاجتماعية، ولكن ما ميز طرحه الفلسفي لهذا الإشكال هو مراهنته على أن الفلسفة الاجتماعية الحديثة تقوم على علاقة قوامها الصراع من أجل الاعتراف. لأن الاعتراف يظل بنظره السبيل الوحيد لتجاوز الوضع المسدود بين الذوات وذلك لما له من مفاهيم فرعية تساعد على ذلك.

¹ - Honneth Axel, La société du mépris : vers une nouvelle théorie critique, trad. Olivier Voirol , Pierre Ruschet Alexandre Dupeyrix, Paris La Découverte, 2006,p .225.

حيث يأتي الحب في مقدمة أشكال الاعتراف والذي يمثل جملة من علاقات التفاعلية بين الذات تقوم على مبدأ الاعتراف المتبادل ما بينها، وهو ما يمثل حافزا مهما لكل ذات، باعتبار أن هذه التجربة تجعلها تشعر بالثقة في النفس، وترتبط هذه التجربة أساسا بالوجود الجسدي للأفراد، مما يجعل كل فرد في تبعية للآخر وذلك لتعدد وتنوع المطالب البيئذاتية التي تفضي بدورها إلى التكامل الاجتماعي فيما بين الأفراد، وقد كتب في شأنه هونيت ما يلي: "الحب يشتمل على جل العلاقات الأولية على مستوى العلاقات المثيرة وعلاقات الصداقة أو العائلة التي تتضمن أواصر قوية بين عدد محدود من الأشخاص"¹.

وأما الشكل الثاني للاعتراف فقد ضمنه هونيت في المستوى القانوني السياسي وذلك لأن "العلاقة القانونية تقف على جل الجسور الحيوية"²، الذي يفضي إلى ضرورة احترام الذات لبعضها البعض ضمن أفق قانوني يضمن لها التوزيع الشرعي للحقوق والواجبات حيال بعضها البعض، وتكمن أهميته في توجيه الأفراد وجهة قانونية سياسية.

وأما الشكل الثالث للاعتراف فيتصل بكيفية تحقيق الذات لتقديرها الاجتماعي مما يجعلها تنظر لذاتها نظرة إيجابية باعتبارها صارت فاعلة في المجتمع الذي تسكنه من خلال مجموع الأفعال التي قامت بها ضمن مجال العمل.

ولأجل تجاوز واقع الضحالة والانحطاط الأخلاقي الذي بلغته المجتمعات الغربية وضمان تطور أخلاقياته، فقد راهن هونيت على ضرورة ضمان شروط الاعتراف المتبادل ما بين أفرادها ضمن أفق اجتماعي تداوتي، رغم أنه على يقين تام بأن ذلك لن يتحقق ما لم يخوض الأفراد والجماعات المهانة جملة من الصراعات الاجتماعية المنظمة لأجل المطالبة بالاعتراف بها داخل الفضاء العمومي لتلك المجتمعات.

فلا يختلف إثنان في القول، بأن تطور أخلاقيات المجتمعات رهين ضمان شروط الاعتراف المتبادل بين أفرادها، إلا أنه من غير الممكن أن يتجسد ذلك فعليا ما لم تخوض الإنسانية جملة من الصراعات الاجتماعية المطالبة بتجسيد الاعتراف كما أكد على ذلك هونيت. باعتبار أن الإنسانية مازالت لم تتجاوز بعد وقائع القهر والظلم لذلك "تعد تجربة الاعتراف من الناحية الاجتماعية شرط تحقيق هوية الشخص وإذا لم يتحقق هذا الاعتراف فإن الفرد سيشعر لا محالة بالاحتقار، وهو الأمر الذي يهدد بإمكانية اندثار شخصيته وزوالها"³.

¹ - Honneth Axel, la lutte por la reconnaissance, trad. Pierre Rusch, Paris Cerf, 2000,p .161.

² - Honneth Axel, la lutte por la reconnaissance, trad. Pierre Rusch, Paris Cerf, 2000,p .183.

³ - Honneth Axel, La société du mépris : vers une nouvelle théorie critique, trad. Olivier Voirol , Pierre Ruschet Alexandre Dupeyrix, Paris La Découverte, 2006,p.193.

نظرية الاعتراف و اقتضاء الحرية عند أكسل هونيت

مثلت إذن نظرية هونيت في الاعتراف منعرجا فلسفيا وسياسيا وأخلاقيا حاسما، وذلك لمراعتها على ضرورة معالجة واقع الازدراء والقهر الذي انحدرت إليه الإنسانية الغربية منذ الحداثة وصولا إلى المرحلة المعاصرة وجعلت من الفرد ضحية للاخلالات المرضية التي أصابت المجتمع وأعادت سبل تطوره .

يبدو أن طموح هونيت الفكري هو الذي دفعه إلى معاينة أهم التحولات التي طرأت على الفضاء العمومي للمجتمعات الغربية، هذا فضلا عن الطفرات التي لحقت الفلسفة الاجتماعية السابقة له، مما مهد له أفق البحث في الاعتراف الذي لا يعد معطى أولى سرعان ما ندرکه وإنما هو حصيلة نزاعات تقوم بين الطلب والإستجابة باعتبار أن الذات تبحث دائما على استقلالها الذاتي الذي يسمح لها من تحقيق ذاتها وبالتالي تجسيد هويتها التي هي رهين الاعتراف المتبادل ما بين الذوات.

هذا ويعد هونيت من بين أهم المفكرين الذين أخذوا قضية الفرد المعاصر وما يتكبده من إخراجات وإشكالات على محمل الجد، وذلك لما قدمه من حلول لأجل إخراجه من الظلم الاجتماعي من خلال مراهنته على الجوانب النفسية والأخلاقية ليصل فيما بعد إلى الجوانب الاجتماعية والسياسية لحياة الفرد المعاصر داخل حضارة شهدت عدة انتكاسات. كما أن اهتمامه الواسع بإشكالات الفرد المعاصر وما يتكبده من معاناة هو ما دفعه إلى مواصلة البحث عن حلول لأجل إنصافه وبناء مجتمع جيد لذلك لم يكتفي هونيت بنظرية الاعتراف كمخرج فلسفي عبره تتمكن الإنسانية من تجاوز واقع الضحالة والانحطاط وإنما تعاداه إلى البحث عن الحرية. فكيف راهن إذن هونيت على مبدأ الحرية كحل راهني لأجل التأسيس الاجتماعي الجيد لمجتمع العدل؟

2- قراءة معاصرة لمفهوم الحرية

لسنا بحاجة إلى الكثير من التفكير في الواقع الإنساني المعيش بالمجتمعات الغربية، ولا التساؤل عن السياق الاجتماعي الذي ينتمي إليه الفرد المعاصر، لكي نتساءل عن حاجتنا إلى الحرية والحال أن الفكر الفلسفي المعاصر قد قدم جملة من الحلول لأجله وقد كان رهان الاعتراف في مقدمتها.

وبحكم العلاقات الإنسانية المتشابكة والمتداخلة التي تحكم الوجود الاجتماعي للأفراد بالمجتمعات المعاصرة، فقد تم الإهتمام إلى مجموعة من الحلول التي تخدم الإنسان الذي لا يستطيع العيش بمفرده لأجل الإرتقاء به إلى واقع حياتي أفضل ولذلك راهن هونيت على ضرورة الغوص في أفق الحرية وذلك لارتباطها الشديد بمفهوم الهوية الاجتماعية وما لحقها من تعقيدات.

ولكي نقف على مناحي التطور الفكري لفلسفة هونيت الاجتماعية وذلك من خلال الوقوف على كيفية تشخيصه للباثولوجيات الاجتماعية التي ضربت الدول الغربية وكيف حاول الخروج منها من خلال بسطه لنظرية الصراع من أجل المطالبة بالاعتراف، وصولا إلى طرحه لمسألة العدالة من خلال مقارنته لنظرية الاعتراف وهو ما يبرر نضجه الفكري واهتمامه الواسع بالوقائع الأخلاقية المعاشة بتلك المجتمعات.

فما يسترعي الانتباه في التطور الفكري لفلسفة هونيت الاجتماعية، هو محاولته تمتين خيوط الوصل بين نظريتي الاعتراف والعدالة، حيث سعى ضمن كتبه الحق في الحرية (2011) إلى ربط الاعتراف بالعدالة والحرية معا، وذلك من خلال إخراج مفهوم الاعتراف من بعده التداوتي ما بين الأفراد أي من المستوى الإتيقي وإدراجه ضمن البنى المؤسساتية للفضاء العمومي بكل هياكله مما جعل منه ضرورة مدنية.

وفي خضم تمتينه لخيوط الوصل بين نظريتي الاعتراف والعدالة، فقد سعى هونيت إلى تطوير نظرية الاعتراف بالشكل الذي يجعلها قادرة على استيعاب نظرية العدالة وهو الأمر الذي جعله يتوكأ مجددا على كتابات سابقه من رواد مدرسة فرنكفورت وكتابات هيغل الناضج من خلال كتابه أسس فلسفة الحق وذلك للقناعة المشتركة بينهما والتي مفادها = أن العقل الأخلاقي العملي في اتصال دائم مع الواقع الاجتماعي للحياة= ويتجلى هذا التحيين الهيجلي ضمن مجموعة من كتبه شأن كتاب الوجه الآخر للعدالة (2000)، الأنا في النحن (2010) والحق في الحرية (2011).

سعى هونيت في كتابه الحق في الحرية إلى تحقيق قفزة نوعية في مساره الفلسفي المتصل بنظرية الاعتراف وذلك من خلال محاولته تطويرها وجعلها قابلة لاستيعاب النقاش القائم حول نظرية العدالة، وذلك من خلال تركيزه على مفهوم الحرية في ثلاثة نقاط أساسية (الحرية القانونية، الحرية الاجتماعية والحرية الأخلاقية) حاول من خلالها معالجة هذا المفهوم بالمجتمعات المعاصرة منطلقا من تمهيد خصصه لتحليل نظرية العدالة بوصفها مدخلا لقراءة المجتمع.

لقد حاول هونيت ضمن تمهيد كتابه الحق في الحرية، الكشف عن عمق التحولات التي تطبع المجتمعات الحديثة والتي هي غاية نظرية العدالة أساسا وكيف سعى إلى دمج نظرية الاعتراف والعدالة معا، لأجل المضي قدما نحو الحرية في محاولة منه لتجاوز معناها الفردي وبالتالي تفعيل الحرية الاجتماعية في معانيها الأخلاقية والقانونية بوصفها تمثل قيمة مركزية في الخطاب الفلسفي المعاصر وذلك من خلال معانيته لأهم المؤسسات والمجالات الاجتماعية التي تتخللها الحرية كالأسرة والسوق والدولة.

هذا وتمثل النموذج الأول في الحرية القانونية، حيث يعرف هذا التصور الحرية على نحو سلبي في تصورات فلسفية عديدة امتدت من النموذج الاستبدادي الذي طرحه طوماس هوبز- (Thomas Hobbes 1558-1679) وصولا إلى النموذج التحرري المعاصر لروبرت نوزيك (Robert Nozick 1938-2002). والذي وجد ضمنه هونيت ظالته في التصور الهوبزي للحرية إبان زمن الحروب الدينية والمدنية حيث اعتبره معبرا عن الحقيقة التي تؤرخ لميلاد فكرة الحرية السالبة وذلك لما له من امتدادات على الفكر المعاصر، هذا وتعني حرية عند هوبز " غياب المقاومة الخارجية، وإمكان وجود موانع تعيق حركة الأجسام الطبيعية"¹.

¹ - Honneth Axel, The Freedom's Rights, Trans. Joseph Ganahl, Berlin, Polity Press, 2014, p.44.

نظرية الاعتراف و اقتضاء الحرية عند أكسل هونيت

وأما الحرية الأخلاقية فقد أرجعها هونيت إلى تصوري كل من روسو وكانط وذلك لما مثله تصورهما من تعبير بليغ عن علاقتها بالأخلاق وما يجب أن يكون فعليا أي تلك الحرية التي تراهن على جعل البون شاسعا بين إمكانها وتحققها فعليا في الواقع المعيش، باعتبارها تعكس في تصور جون جاك روسو (ROUSSEAU JEANJACQUES 1712-1778) " مفهوم الإرادة الإنسانية" ولدى إيمانويل كانط (Emmanuel Kant 1724-1804) "استقلال الإرادة الأخلاقية".

هذا ويكتسي ضرب الحرية الاجتماعية أبلغ تعبير عن الدلالة الاجتماعية لها، حيث عمد هونيت في تحليله لهذا الضرب من الحرية إلى تناول العديد من التصورات الفلسفية التي تناولت هاته المسألة الاجتماعية بالمقاربة والتحليل، وتأتي إتيقا المناقشة لها برماس و كارل أوتو أبل (Karl Otto Appel 1922-2017) في مقدمتها، إلا أن هونيت أقر بمحدوديتها ووجد ضالته في التصور الهيجلي للحرية الاجتماعية الذي يربط العلاقات التداوتية الاجتماعية بالحرية الذاتية لكل فرد، فلا مجال إذن للحديث عن الحرية الفردية بمعزل عن المجتمع " إن الحياة الأخلاقية : هي الاستعداد الذاتي لأن يصطبغ المرء بما هو حق في ذاته"¹.

لقد ربط كل من هيجل وهونيت الحرية الاجتماعية بنظرية الاعتراف لاعتباره يمثل بالنسبة لهما الشرط الضروري للتحقق الجماعي للحرية الفردية التي تصبو إلى تحقيقها كل ذات، والحال أن التجسيد الفعلي للحرية الفردية يقتضي دمجها ضمن سلسلة من الممارسات والمؤسسات التي تضمن ذلك. ولا يختلف كذلك كارل ماركس (Kar Marx 1818-1883) عنهما في تصوره لكيفية تجسيد الحرية ضمن مجال العمل من خلال مراهنته على أن تجسيدها الفعلي يقتضي تطابق المؤسسات الاجتماعية فيما بينها.

فلا مناص من القول إذن بأن هونيت قد أولى ضرب الحرية الاجتماعية اهتماما واسعا خاصة وأنه يربطه بالاعتراف وهو ما ساعده في توسيع نظرية الاعتراف من خلال طرحه للعلاقات البيئذاتية ضمنها من خلال العلاقات الشخصية للنحن والتي تتجسد ضمنها العلاقات التداوتية في ثلاثة مجالات أساسية وهي الصداقة والعلاقات الحميمية والعائلة مبينا بذلك الفرق الكائن بين الصيغ الحديثة والصيغ المتوارثة لكل ضرب منها.

لا يختلف إثنان في القول بأن تصور هونيت الفلسفي منصب أساسا نحو البحث عن الكيفية التي من خلالها يقع تأصيل نظرية الاعتراف ضمن الفضاء العمومي للمجتمعات المعاصرة، وذلك لأجل محو آلام وجراح المظلومين والمقهورين بدول الرفاه التي يغيب عنها العدل الاجتماعي بين أفرادها خاصة وأن هاته المجتمعات لازال جسدها يمزق من قبل القوى الاقتصادية الجائرة والسياسية والدينية والعرقية والثقافية والحال أن الإنسانية في حاجة إلى نظرية اعتراف كونية تتجاوز الفضاء الأوروبي لأجل تضميد جراحها الغابرة منذ سنين.

¹ - هيجل فريديريك، أصول فلسفة الحق، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996، ص319.

خاتمة:

رام هونيث من خلال نظرية الصراع من أجل الاعتراف التي حاول من خلالها معالجة الاحراجات الاجتماعية الضاربة في عمق الفضاء العمومي بالمجتمعات الغربية، إيجاد جملة من الحلول العملية التي تنصف الضحايا ضمن أفق إنساني ضامن لشروط الحياة الناجحة للأفراد. لذلك كان دائما يراهن ضمن مساره الفلسفي الطموح على قيم التقدير والاحترام والمساواة والعدل والحرية لكل فرد.

ورغم أنه لم يجعل من نظريته تنصف بالكونية وإنما ظلت حبيسة دول الرفاه، إلا أنه راهن ضمن أبحاثه في مسار الاعتراف على قيمة الإنسان وكرامته باعتباره جزء من المجموعة، لذلك كان دائما ينزع نحو تجسيد فعل الاعتراف في الوجود. وربما هذا ما جعل من نظريته في الاعتراف مقارنة فلسفية أخلاقية سياسية تمكن غيرها هونيث من تشخيص جراح المجتمع وحاول تضميدها من خلال إرساء نماذج الاعتراف لأجل الرقي بالمجتمعات المعاصرة نحو الأفضل.

معلوم أن براديفم الصراع من أجل الاعتراف صار مفهوما مفتاحيا في الخطاب الفلسفي المعاصر وذلك لما حمله في طياته من ثقافة الاعتراف والانعتاق والتحرر، إذ عبره استطاع هونيث أن يرسم أفاق جديدة لمجتمعات الظلم واللاعدل حتى تتمكن من بلوغ واقع جيد يطيب فيه العيش معا لمختلف مكوناته الإنسانية.

فلا جدال في القول بأن هونيث يعد من بين أهم المفكرين المعاصرين الذين أخذوا قضية الفرد المنبوذ اجتماعيا ومعاناته على محمل الجد، من خلال ما قدمه من حلول تنأ به عن واقع الضحالة والانحطاط ضمن أفق إنساني يعج بالعديد من الكتابات التي تناولت هاته المسألة. ولكن فلسفته الاجتماعية تميزت عنها من خلال اهتمامها بالجوانب النفسية والأخلاقية ثم الجوانب الاجتماعية والسياسية لهذا الطرح الفكري داخل حضارة مريضة.

المراجع:

هيجل فريديريك، أصول فلسفة الحق، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996.
محسن الخوني، "الفهم والتفاهم والحوار والاعتراف في فلسفة التواصل بين هابرماس وهونيث"، مجلة التفاهم، العدد 36، 2012.

هونيث أكسل، التشيؤ: دراسة في نظرية الاعتراف، ترجمة كمال بومنير، الجزائر، 2010.

Honneth Axel, The Freedom's Rights, Trans. Joseph Ganahl, Berlin, Polity Press, 2014.

Honneth Axel, La société du mépris : vers une nouvelle théorie critique, trad. Olivier Voirol, Pierre Ruschet Alexandre Dupeyrix, Paris La Découverte, 2006.

Honneth Axel, la lutte por la reconnaissance, trad. Pierre Rusch, Paris Cerf, 2000.